

أصل الفرس

روى أنه حينما أراد الله خلق الحصان ، قال لريح الجنوب : إني أريد أن أخرج منك خليفة تصبح فخر أوليائي ورعب أعدائي . فأجابت الريح : سمعاً وطاعة إنك أعلم العالمين . وأخذ الله حفنة من الريح وخلق منها حصاناً أصهب داكنا وقال له : « لقد خلقتك عربياً . أخرجتك من الريح . وجعلت السعد في العرف الذي ينزل على عينيك . طر بغير جناح . وكن سيد جميع الحيوانات . مكر مفر ، على صهوتك رجال يحمدونني ويسبحون لى . كلما حمدوني حمدتني وكلما سبحوها لى سبحت » ووسمه سمة المجد والسعد ، وهى شبهة فى رأسه وسط جبهته «^(١) ووثب الجواد فى الفضاء .

وهكذا خلق الحصان ، لا كما خلق سائر الحيوان ، ولا فى الوقت ذاته ، بل على حدة وبعناية خاصة . وكأنما أراد الخالق أن يحسن جبله ، فأوجد أولاً جميع الحيوان ، ثم أراد أن يتوج عمله بتحفة فنية فكان الحصان . وإن أمامنا أيضاً من الدلائل الساطعة على حب الله لخليقته الجليلة ؛ فالله يخاطب الحصان ، كما يخاطب الملائكة والأنبياء . ويشركه فى أعمال المؤمنين ، فهو بحق فخر المصطفين ، ومرعب العدو ، وإنه ليحمد

(١) كتاب علم الفروسية مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

الله كما يحمده بنو آدم الخيرون . ويغدق عليه الله من نعمه ، فيمنحه سرعة الطير ، وقوة الدابة ، وشجاعة الإنسان . وإذا قد خرج من الريح ، فإن له خفة النسيم ورساقته ، وعتو الريح وصولته . وكان من نصيبه جمال البدن ، من إهاب قاتم ، وشهاب أبيض على الجبهة ، وجمال الخلق من ذكاء في الفر والكر ، وحمية المتقين ينفقها في مقاتلة أعداء الإيمان . وهو في آخر الأمر ملك سيد ، ورحيم يصنع المعروف ويكفيه شرفاً أنه خلق عربياً .

وإن في القرآن الكريم لتشريف عظيم للخيل ، إذ يقسم بها الله سبحانه وتعالى في قوله : « والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نعقا . فوسطن به جمعا . إن الإنسان لربه لكنود » (١) . ولنعد الآن إلى ما أثير عن الأصل « الأرضي » للجواد العربي . فقد أخبرنا الوافدي ومن ذهب مذهبه من المؤرخين ، أن الحصان قد عاش متوحشا كالغزال والنعامه وسائر الحيوان حتى تجيل لإسماعيل بن إبراهيم جد العرب (٢) .

(١) سورة العاديات . وقد ورد نص مشابه في سفر أيوب (٣٩ : ١١ - ٢٥) : « أتعطى الفرس عنفوانه ، وتكسو عنقه عرفاً ، أتمنعه أن يشب وثب الجراد ؟ إن نفع منخره يثير الرعب . إنه يدك الأرض بقدمه وينطلق فرحاً صوب المعمة . يسخر من الخوف . ولا يرتاع ولا ينشئ أمام السيف . على صهوته تصل سهام وسان الرمح والمزراق . عند نفخ البوق يقول « هه » ، ومن بعيد يستروح القتال وصياح القادة وهتاف الجند » .

(٢) عن ابن عباس « كافت الخيل وحوشاً لا تركب ، فأول من ركبها اسماعيل فلذلك سميت عرباً » أنساب الخيل ص ١٢ (تحقيق) .

كما يخبرنا ابن عباس أن : أول من ركب الخيل واتخذها ، إسماعيل ابن إبراهيم ، وأول من تكلم بالعربية الفصيحة التي أنزل الله قرآنه على رسوله بها ، قال : فلما شب إسماعيل أعطاه الله القوس فرمى عنها . وكان لا يرى شيئاً إلا أصابه . فلما بلغ أخرج الله له من البحر مائة فرس ، فأقامت ترعى بمكة ما شاء الله ، ثم أصبحت على بابه ، فرسها وأنتجها وركبها^(١) .

ثم فقد كثير من هذه الجياد على مر الزمن نقاء أصله . وكان داود نبي الله يحب الخيل حباً جمماً ، فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق^(٢) وعتق^(٣) أو حسن أو جرى ، إلا بعث إليه ، حتى جمع ألف فرس ، لم يكن في الأرض يومئذ غيرها . فلما قبض الله داود ، ورث سليمان ملكه وميراثه ، وجلس في مقعد أبيه ، فقال : « ما ورثني داود مالا أحب إلى من هذه الخيل » . وضمدها وصنعها (أى أحسن القيام عليها)^(٤) .

ويحدثنا ابن عباس أيضاً قائلاً : « إن أول ما انتشر في العرب من تلك الخيل ، أن قوماً من الأزد من أهل عمان قدموا على سليمان بن داود

(١) أنساب الخيل ص ١٢ .

(٢) بأصل . ومنه قولهم : عريق النسب .

(٣) بكرم .

(٤) أنساب الخيل ص ١٢ .

بعد تزوجه بلقيس ملكة سبأ ، فسألوه عما يحتاجون إليه من أمر دينهم ودينياهم ، حتى قضوا من ذلك ما أرادوا وهووا بالانصراف فقالوا : « يا نبي الله ، إن بلدنا شاسع وقد أنفضنا من الزاد . مر لنا بزاد يبلغنا إلى بلادنا » فدفع إليهم سليمان فرسا من خيله ، من خيل داود ، قائلا : « هذا زادكم ، فإذا نزلتم فاحملوا عليه رجلا وأعطوه مطردا (رمح قصير يطعن به حمر الوحش) وأوروا ناركم . فإنكم لن تجمعوا حطبكم وتوروا ناركم ، حتى يأتيكم بالصيد » . فجعل القوم لا ينزلون منزلا إلا حملوا على فرسهم رجلا بيده مطرد ، واحتطبوا وأوروا نارهم ، فلا يلبث أن يأتيهم بصيد من الطباء والحمر فيكون معهم منه ما يكفيهم ويشبعهم ، ويفضل إلى المنزل الآخر . فقال الأزدبون : « ما لفرسنا هذا اسم إلا : زاد الراكب » . فكان ذلك أول فرس انتشر في العرب من تلك الخيل .

فلما سمعت بنو تغلب ، أتوهم فاستطرقوهم . فنتج لهم من زاد الراكب : الهجيس فكان أجود من زاد الراكب .

فلما سمعت بكر بن وائل ، أتوهم فاستطرقوهم ، فنتجوا من الهجيس : الديناري فكان أجود من الهجيس .

فلما سمعت بذلك بنو عامر ، أتوا بكر بن وائل فاستطرقوهم على سبل (وكانت أجرد ما أدركوا ؛ وأمها سواده وأبوها فياض) فنتجوا منه : أعوج^(١) .

(١) أنساب الخيل ص ١٣ - ١٦ (تحقيق) .

وهكذا نمت الجياد وتعددت ، وتحسن النسل من جيل إلى جيل ، وانتشرت الخيل بين العرب الذين يعرفون نسب كل جواد . ويتضح مما تقدم ، أن الجياد العربية كانت من نسل « زاد الراكب » حصان داود ، الذى ينتسب فى خط مستقيم إلى الجياد الشريفة التى وهبها الله عبده إسماعيل .

ويتضح مما تقدم أيضاً أن عرب الجاهلية سرعان ما أدركوا نفع الفرس وجماله ، وأنهم كانوا يقتنون - إلى عهد بعيد قبل محمد - جنسا من الجياد لا مثيل له ، وقد بذلوا الجهد لتحسينه والإشراف به على الكمال ؛ وذلك عن طريق الانتقاء والتربية وضروب العناية المعتمدة على الفطنة . ولكن النبي (صلى الله عليه وسلم) - وقد طلع على العرب بشريعة جديدة كانت فى آن واحد رسالة أخلاقية ودينية ومدنية وسياسية تقوض عقائد الجاهلية وتمحو عاداتها وأخلاقها وتقاليدها ونزعاتها ، ثم تشيد هذا كله وترسيه على أسس الإيمان السليمة القومية - قدر عليه الصلاة والسلام أنه من الخير تنمية اهتمام القوم بالحصان ، لا من أجل غرض نفعى فحسب ، بل من أجل إعلاء كلمة الله . واستخدم المصلح العظيم جميع ما أوتى من قدرة ، لتشجيع المسلمين وحثهم على ترويض الخيل وتربيتها ، وإعداد أقصى عدد ممكن منها للقتال فى سبيل الله . وضرب بنفسه خير مثل ، فقد أحب الجياد واقتنى منها - فيما يقال - عشرين جوادا من أفضل نوع .

ويتفق المؤرخون على خمسة من أسماء الجياد التي حظيت برعاية الرسول الكريم وهي : لزاز . لحاف . المرتجز . السكب . العسوب . وكان محمد يظهر حبه لهذه الجياد جميعا بلا تمييز ، ويغدق عليها عطفه ، فكان يقدم لها الشعير بيده ، وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح بكمه وجه فرسه وعينيه ومنخريه^(١) . وقد أفادت تلك الدروس ، كما يتجلى ذلك في القصة التالية :

روى « صاحب رشحات المداد^(٢) » أن روح بن زبناغ الجذامى رأى تميا الدارى فوجده ينقى لفرسه شعيرا ثم يعلقه عليه ، وحوله أهله . فقال روح : ما كان لك من هؤلاء من يكفيك ؟ قال تميم : بلى ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من امرئ مسلم ينقى لفرسه شعيرا ثم يعلقه عليه ، إلا كتب الله له بكل حبة حسنة » .

وتروج منذ ذلك الأوان ، رواية النوادر والحكايات والحكم والأمثال ، التي تهدف جميعها إلى الحث على اقتناء الخيل ، وتربيتها وتوسيع مواردها . ويستطيع الباحث أن يملأ كتبيا ، إذا جمع الأحاديث النبوية التي قبلت في الحصان ، وحفظتها عنه الأجيال في ورع . وها هي ذى أشهر المبادئ التي كان من أثرها أن جرى في دم المسلمين حب الفرس :

(١) أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ . (تحقيق) .

(٢) أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ (تحقيق) .

لقد أورد^(١) البلقيني في « قطر السيل في أمر الخيل » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

— ما من رجل مسلم إلا وحق عليه أن يرتبط فرسا إذا أطاق ذلك .
(كما روى أيضاً في كتاب أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام ص ١٠)
قوله صلى الله عليه وسلم) « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .
وقوله صلى الله عليه وسلم :

— من ارتبط فرسا في سبيل الله ، كان له مثل أجر الصائم القائم والباسط يده بالصدقة ما دام ينفق على فرسه .

— من هم أن يرتبط فرسا في سبيل الله بنية صادقة أعطى أجر شهيد^(٢)
— وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم : أى المال خير ؟
قال : سكة مأبورة ، ومهرة مأمورة^(٣) .

ولم يقنع محمد بإغداق وصاياها الكريمة ، بل راح يخاطب روح التنافس التي اشتهر بها العرب وروح الكسب الكامنة في طبيعة البشر ؛ حتى تكثر الخيل الطيبة . فلقد نظم مباريات لسباق الخيل اشتركت فيها جياده ، وأجاز في ذلك الرهان المحرم في سائر الأغراض الأخرى تحريم

(١) أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام : تعليق ص ٦ .

(٢) الحديثان أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام : ص ١٠ .

(٣) العقد الفرديد ج ١ ص ١٧٩ (والسكة : الطريق المصطفة من النحل .

ومأبورة . يعنى : ملقحة . ومأمورة : يعنى .. كثيرة النسل والنتاج . تحقيق) .

الميسر^(١) ووضع جوائز للفائزين . ولقد راهن رسول الله صلى الله عليه^(٢) وسلم على فرس له يقال لها « سبحة » فجاءت سابقة ، فهش لذلك وأعجبه . كما سبق الرسول بين الخيل المضمرة ؛ فأرسلها من الحفيا إلى ثنية الوداع (وهما مكانان بالمدينة المنورة بينهما مسافة ستة أميال أو سبعة) ؛ وسابق أيضاً بين الخيل غير المضمرة ، فأرسلها من ثنية الوداع إلى مسجد ابن زريق ، والمسافة بينها ميل أو نحوه ، وسابق بينها على حبل أته من اليمن فأعطى السابق ثلاث حلال ، والمصلى حاتين ، والثالث حلة ، والرابع ديناراً ، والخامس درهما ، والسادس قصبة وقال له :

بارك الله فيك وفي كلكم وفي السابق ، والتسكل (أى الذى يجيء آخرًا) .

وأجرى الخيل ، فسبق سهل بن سعد الساعدي على فرس لرسول الله ، فكساه برداً يمانياً .

ثم أجرى الرسول الخيل ، فجاء فرس له أدهم سابقاً ، وأشرف على الناس ، فقالوا : الأدهم ! الأدهم ! وجثا الرسول على ركبتيه ومر به الفرس — وقد انتشر ذنبه وكان معقوداً — فقال : « إنه لبحر ! » .

(١) قال صلى الله عليه وسلم : كل هو المؤمن باطل إلا في ثلاث : تأديه نرسه ورميه عن كبد قوسه وملاعبته امرأته . فإنه حق . (العتمد الفريد ج ١ ص ٢٢١ تحقيق)
ويجيز قانون نابليون بالمثل — في المادة ١٩٦٦ — ما جعل من الرهان للمباراة « بالأسلحة وسباق الخيل وسباق المركبات . . . والألعاب التى تتصل ببراعة البدن ورياضته » .
(٢) انظر « أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام » تعليق ص ٨ (تحقيق) .

وفي تقسيم الغنائم ، آثر النبي الفارس ، واعترف بنصيب معلوم للفارس (فقد أورد البخشي في « رشحات المداد » ما خلاصته) : إن الفارس يفضل على الراجل بشيء مخصوص وليس ذلك إلا للفارس « فإن غيرها من الدواب - إذا قاتل عليها الإنسان - فلا يستحق شيئا معنا ، بل يرضخ له رضخا ولو كان أعظم الدواب كالفيل (والرضخ هو إعطاء المقاتل قليلا من كثير من الغنيمة أو هو إعطاؤه دون السهم) .

وأما الفرس ، فقد ورد تفضيله بسهم معين : فذهب أبو حنيفة إلى أن الفارس يعطى سهمين (له ولفرسه) مستدلا بما فعله الرسول مع المقداد ابن عمرو في يوم بدر ، ومع الزبير بن العوام في يوم بني قريظة ، ومع جميع الفوارس في وقعة بني المصطلق . وفي غزوة الحديبية^(١) كان للفارس سهمان وللراجل سهم واحد . ولكن الذي ذهب إليه الجمهور (واعتمده ابن حنبل) هو أن الفارس له ثلاثة أسهم ، واحد له واثنان لفرسه ، وأما الراجل فله سهم واحد (كما في الصحيحين) ، واستدلوا بما فعله الرسول في غزوة خيبر وفي غزوة المريسيع ، واستشهدوا بقوله صلى الله عليه وسلم في فتح مكة : « إني جعلت للفارس سهمين ولل فارس سهمًا » وعلى ذلك جرى أسامة بن زيد ، فإنه جعل للفارس سهمين ولصاحبه سهمًا وأخذ لنفسه مثل ذلك . وحصل ذلك بمشهد من المهاجرين والأنصار ولم ينكر عليه أحد ، فهو بمنزلة الإجماع السكوتي^(٢) .

(١) الحديبية : لم يحدث فيها قتال . فلملح معنى غزوة حنين (تحقيق) .

(٢) أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام . تعليق ص ٧ (تحقيق) .

إن الحصان - في عبارة موجزة-فضلا عن كونه مصدرا من مصادر النفع في زمن السلم وزمن الحرب على السواء ليبدو في نظر الإسلام وكأنه التيمة ، فهو في الدنيا فال حسن ، وللاخرة عربون الرحمة الإلهية وتأمين النعيم الأبدى . ولذلك عنى الفرد كما عنيت الجماعة باقتناء أكبر عدد ممكن من الجياد ، تُبذل لها العناية وتُكرم لإكرام الأهل « النافعين الصالحين » .

ومنذ يولد المهر ، يَهَل الأهل ، لأن مولده نعمة من نعم الله . ويتناول على الفور أحد الحاضرين فيطوف به حول المكان فينة بين هتاف الهاتفين وصخب الصاخيين . ويرى القوم في هذا النهج درسا مفيدا للمستقبل ، فإن الحيوان إذا اعتاد الضجيج منذ مولده لن يرهب بعد ذلك شيئا^(١) ثم يضع رب الخيمة ثدى الأم الأيمن في فم الوليد ، صائحا : « باسم الله ، اللهم اجعله لنا هنيئا ، وليجلب لنا الخير والصحة » ، فيجيب الحاضرون : « آمين » .

وفي ختام هذا الحفل يعهد بالمهر إلى نساء الخيمة ، فيقمن بتربيته تربية منهجية توجيها عاطفة الأمومة ؛ فإنهن ليعتبرنه كالولد ، وما رسالتهن سوى إقامة هذا التضامن الذي ينبغي أن يربط بين الإنسان والحيوان ، وذلك بالحدب عليه والعناية الدائبة به . وهكذا يصبحن فيخرجن إلى المراعى حيث يجمعن ما يطيب للخيول من أعشاب مغذية مقوية ، ويمسكين فيقتدن

(١) الجنرال دوما : خيول الصحراء ، ص ٩١ .

الخيل إلى العين أو إلى حوض الشرب . وبأيديهم يقدمن لها اللبن والتمر والشعير أو الخبز الطرى أحيانا . فإذا اشتد الحر أدخلنها تحت الخيمة ، وهناك يلهو الحصان ويلعب مع « إخوته » من أبناء سيده . ويأنس الحصان لهذه الألوان من الاهتمام والتدليل فتربطه بأهل الخيمة جميعاً روابط الألفة . فما إن يرى سيده مقبلة حتى يدير رأسه نحوها في رشاقة ، ويصهل فرحا ، ويكدف سرورا ، ويسعى إليها متمنيا أن ينال شيئا من الحلوى ، فإن الحصان ليعرف اليد التي تعلفه وتعنى به وتربت عليه . ثم يبدأ تدريب الجواد بصحبة رفيق لعه وقد شب عن الطوق كذلك ، وأخذ يتلقى أصول القروسية ، فيمضيان معاً خلال الريف ، ويمعان فيه إلى مدى أبعد كل يوم ، حيث يتدربان على الركض ، تنشيهما السرعة ونفحات الأعشاب الشذية . . . ويشتد بدن الحصان فيحظى في آخر الأمر بأن يحمل سيده على صهوته . ويتم تدريب الفتي ، فيتعلم كيف تربت عليه ، ويتلقن ما يجب أن يقول له من الكلام، ويتدبر كيف يعاقبه أيضاً دون أن يهينه قط .

ويصنع الفتي من حصانه « شاربا للهواء » حقاً ؛ فيعلمه أن يعدو سريعا ، ولدة طويلة ، وأن يبدأ ركضه بقدم شديدة العزم ، وأن يهاجم ويفر ويكر ، وأن يقف فجأة أمام حاجز يعترضه ، أو يدور حوله أو يجتازه في وثبات رائعة . ويعلمه كذلك كيف يبهز القوم في الحفلات حتى يتتزع بأناقته ورشاقتة وبراعته بسمات الفارسات الحسنات وثناءهن ؛

فقد حذق الرقص على أنغام المزمار والرباب ، وتوقيع مقاطع اللحن بسنابكه ، وتمثيل ما يشبه مشهدا من مشاهد الغرام ، كأن يلتقط من الأرض مندبلا ويمده إلى صاحبه مترفقا^(١) أو أن يركع عند قدمي الشخص الذي يتشرف سيده بتكريمه .

وإذ ذلك فقط - بعد أن يتمكن من جميع هذا العلم ، ويصبح في آن واحد فناناً ومقاتلاً صلداً ، مرناً ، ذكياً ، خفيفاً ، طوع إشارة فارسه أو صوته أو فكره - إذ ذلك يصبح الحصان العريق كريماً بذاته لا بفضل أجداده فحسب .

وهو منذ ذلك الحين أيضاً ، أكثر الحيوانات شها بالإنسان ، لشجاعته وكبريائه وكلفه بعضاأم الأمور^(٢) وهو صاحب وصديق سيده « الذي يعني به ويعلفه ، ويغطيه في المعسكر أو تحت الخيمة ، ويلجمه للحرب أو للأسفار »^(٣) .

ويشرف السيد إشرافاً دقيقاً على أفراح جواده العائلية كما سبق له أن أشرف على ولادته وعلى تربيته ، فيختار له فرساً عريقة النسب ، رافهة جميلة ذكية ، خليقة بأن تمنحه خلقاً كريماً ؛ فإن مصاهرة الجواد

(١) لا يعتبر العرب الحصان دابة من ذوات الأربع، فإن له - كما للإنسان - يدين ورجلين .

(٢) الأغاني .

(٣) ديلاز (Delard) : فن الفروسية ، طبعة ١٨٥٩ .

الأصيل خيلا أدنى منه نسا ، لوصمة عار تلتحق بالأسرة وبالقبيلة جمعاء ، فضلا عن صاحب الجواد نفسه . يقول ديلاز : « تزويجك الفحل فرسا عادية كتزويجك الرجل الأبيض زنجية »^(١) . ولجواد بعد ذلك أن يحتم حياته آمنة مطمئنا في ظل النخيل ، وهو سعيد إذ أدى واجبه وشاطر سيده أفراده وألعابه ومعاركه . ولعله يحظى أيضاً بشرف الموت أثناء القتال وقد اخترقته سهام العدو ، فتظل ذكراه خالدة في الأسرة التي عاش يخدمها ومات فداء لها . وربما حظى بالخلود وحسن الذكر بين الناس أيضا ، إذا كان صاحبه شاعرا وتعنى به في أبيات ملهمة . ويضم كتاب الخيل الأصيلة — الموضوع حوالى سنة ٥٤٠ هـ . — أسماء مائة واثنين وستين جوادا اشتهرت في الجاهلية والإسلام^(٢) وتلك قائمة يستطيع الباحث أن يطيلها إلى غير حد .

وعادة لإطلاق الأسماء على الجياد ، عادة مطردة لدى الشعوب المقاتلة . فلقد كانت هذه الشعوب تحرص على أن تميز الخيل الشائعة العادية من الخيل الكريمة صانعة النصر والمجد . ومن هنا نشأت في فرنسا ، أثناء القرون الوسطى ، هذه الفوارق الواضحة بين حصان الحرب وحصان الاستعراض ، والحصان الذى يحرث الأرض أو يحمل الأثقال :

(destrier, palefroi, roncin, sommier)

(١) المرجع السابق .

(٢) كتاب أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام « نشره أحمد زكى باشا » .

وكان من خيول الحرب أو الاستعراض السريعة الرشيقة ، ما يتميز برونق خاص تصفيه عليه أصالة النسب والذكاء . ولم يفت قصص الفروسية أن تذكر لنا أسماء أشهر الجياد التي كانت بحق مطايا أشهر الفرسان ، بل أنبأتنا بمواقف البطولة التي وقفها تلك الجياد فأثارت إعجابنا بما أوتيت من فهم نادر . وكلنا نعلم — كما كان أهل العصر يعلمون — أن جواد شارلمان كان يدعى تنسندور (Tencendur) وجواد رولان « فيانتييف » (Veillantif) ، وجواد جيوم دورانج « بوسان » (Beaucent) ، وجواد رينودي مونتوبان « بايار » (Baiart) .

ويمكن تصنيف أسماء هذه الجياد ، التي امتلأت بها وازدهرت أكثر قصائد القرون الوسطى ، حسب الجنس والنوع : فمنها ما اشتق من لون الحصان مثل الأبيض (Blanchart) والرمادي (Grisart) ، والأصهب (Rous) ، والأرقط (Tachebrun) إلخ ، ومنها ما يدل على بعض الملامح المميزة مثل « الضامر » أو « مرح الخطا » ، وربما أطلق على الحصان اسم من أسماء الرجال مثل « رامون » . على أن معظم الأسماء تشير إلى صفات السرعة أو العنفوان مثل « عابر الريح » (Passavent) والطحان (Broiefort) و « ملتهم الحرب » (Broieguerre) إلخ .

ولقد حفظ لنا الشعر العربي كذلك أسماء تلك الجياد التي رافقت الأبطال الصناديد؛ فجواد عنزة يدعى « أبحر » وجواد حاتم « جلاب » ،

وجواد جذامة « عصا » ، وأما زيد الكيل فكان يقتنى « لاحق » « وذبول »
و « كامل » و « ورد » و « كميث » و « هطال » . . . ونستطيع أن
نصنف كذلك هذه الأسماء إلى :

(أ) أسماء ألوان : كالأبلق ، والأدهم ، والعسجدى ، ومرجان
وياقوت ، والورد ، وليل ، ومرّ .

(ب) خصائص مميزة : مثل أعسوج ، العطاس ، ذو العتال ،
ذو اللمة .

(ج) صفات العنقوان والسرعة مثل : صابر ، ناج ، سابق .
ولم يطلق العرب على جيادهم أسماء الناس — فقد كانوا يحفظون
لكل ذى قدر قدره — وإنما كانوا يطلقون عليها أحياناً أسماء الحيوان
مثل : الغزالة ، النعامة ، غراب ، حمامة ؛ أو صفات إنسانية مما يشير
إلى النسب أو الذكاء أو الصداقة مثل : عتيق ، منصور ، مسعود ،
كامل ، منزه ، ناصح ، الصاحب . . .

وإن فى سرد هذه الأسماء ، ما يشوق بوجه خاص أصحاب خيول
السباق ، الذين يلتصقون بجيادهم أسماء بديعة ، غير أننا نستخلص منها
ما يفيدنا فى الإجابة عن هذين السؤالين :

أولاً — أى الألوان كان القدماء يفضلون ؟

ثانياً — ما هى الصفات البدنية والأخلاقية التى تدل على الجواد

الأصيل ؟

ينبتنا « جوتيه » في تعليق جامع — استشهد فيه بأشعار القرون الوسطى من الأدب الفرنسي — أن أهل تلك العصور كانوا يهتمون بلون الحصان ، أكثر مما نهتم به اليوم ، فكان لون الحصان خليقاً بأن يرفع ثمنه أو يبخسه . ويبدو أنهم كانوا يفضلون الأبيض والرمادي الفاحم (١) .

وكان العرب كذلك يهتمون اهتماماً كبيراً بإهاب الحصان ، ويستدلون به على صفاته . وكانوا بوجه عام يميزون الإهاب الخالص اللون أو القاتم على ما عداهما . ولكنهم كانوا يفضلون أولاً « الأشقر » لأن النبي قال ، وهو خير العارفين بالحياد : « لو جمعت خيل العرب في صعيد واحد ما سبقها إلا الأشقر » (٢) .

ولقد كانوا يقدرون الكمية لسرعته ، وكانوا يقدرون الأشقر لقوة احتماله ، والأسود لجمال شكله وحميته في القتال ، والملون ذا الجبهة البيضاء لأنه أجلب الجياد للسعد . ولكنهم ما كانوا يرغبون في الفرس الأبلق على أي حال . وكانوا يهتمون كذلك اهتماماً عظيماً بالفرق بين الفرس إذا كان أشهب القوائم أو كانت الشبهة في إحدى سيقانه فقط (٣) وإذا كان كثير السبلات أو قليلها وأين تقع هذه السبلات من بدنه ، فسبلة

(١) جوتيه ، تعليق ص ٧٢٤ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٧٩ .

(٣) كان عليه الصلاة والسلام يكره الشكال في الخيل (أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة أو العكس) العقد الفريد ج ١٨ ص ١٧٩ . (تحقيق) .

الصدر تملأ الخيمة بالخير ، فإذا جاورت الذيل أنذرت بالبوئس والويل . .
إلخ (ولسنا نرى هنا إلى استقصاء جميع التفاصيل ، بيد أننا نحيل القارئ
المستزید إلى كتابي الدكتور بيرون والجنران دوما فهما مرجعان وافيان)^(١)
واقدم كان شكل الحصان — بغض النظر عن لون إهابه — مما يدل
على صفاته .

سأل^(٢) معاوية بن أبي سفيان ، صعصعة بن صوحان : أي الخيل
أفضل ؟ قال : الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، الصافي الثلاث .
قال : فسر لنا . قال : أما الطويل الثلاث ، فالأذن والعنق والحزام ،
وأما القصير الثلاث ، فالصلب والعسيب^(٣) والقضيب ، وأما العريض
الثلاث ، فالجبهة والمنخر والورك ، وأما الصافي الثلاث ، فالأديم والعين
والخافر .

وقال آخرون : ينبغي أن تأخذ الفرس من الخنزير البري الأقدام
واتساع الرأس ، ومن الغزال الرشاقة والعين والفم ، ومن الوعل المرح
والذكاء ، ومن النعام العنق والسرعة .

وكانت هذه الأوصاف الخارجية — بالإضافة إلى غيرها مما يضيق

(١) الناصري : كمال الفنين أو المبحث التام في علم الخيل العربية وطبها لأبي بكر
ابن بدر ، ترجمه إلى الفرنسية الدكتور بيرون (Perron) . و « خيل الصحراء »
للجنرال دوما .

(٢) المقدم الفريد ج ١ ص ١٨١ (تحقيق) .

(٣) عظم الذئب .

المقام عن الإحاطة به — تدل الناظر من أول وهلة على أصالة الحصان ، وإن كانت الخبرة وحدها هي التي تظهر مزاياه الكامنة . وهكذا يوجز الأمير عبد القادر — في رسالة منه إلى الجنرال « دوما » — ما ينبغي أن يتحلى به الحصان من الصفات « الخلقية والعقلية » في قوله :

« إننا لنعرف أن الحصان لا يكون عريقاً حقاً ، إلا إذا اقترن جمال

تكوينه بالشجاعة والحيلاء وازدهى عجباً وسط الطلقات والنوازل .
فمثل هذا الجواد يعتز بصاحبه ، ويأبى في أغلب الأحيان أن يمتطيه
سواه ، ولا يقضى حاجة ما دام يحمله . وهو لا يأكل قط فضلات
حصان آخر ، ويسره أن يعكر بأقدامه ما قد يقابله من الماء الصافي .
وهو بسمعه وبصره وشمه يستطيع — كما يستطيع بمهارته وذكائه —
أن يقي صاحبه آلاف المكاره التي قد تحدثق به في الطرد أو في الحرب .
وهو أخيراً — إذ يشاطر فارسه مشاعر الألم والسرور — يعاونه في القتال ،
بالمقاتل معه وبالاتحاد وإياه في كل مكان وزمان » (١) .

وحسبنا أن نلاحظ ما ورد في العبارة الأخيرة ، ألا وهو العون الذي يبذله
الفرس لفارسه في أثناء المعركة ، وذلك التضامن الوثيق الحميم بين الإنسان
والحيوان في المعركة .

والحق أن الجواد العربي يقاتل ؛ فهو يعرف كيف يعض جواد
العدو في صدره ، ويدافع عن نفسه باليدين والرجلين ، وكيف يكر

(٣) الجنرال دوما : المرجع السابق ذكره ص ١٥ .

ويفر ، وكيف يحمي صاحبه ويجود بالروح من أجله إذا اقتضى الأمر .
إنه ينقض على العدو في لحظة انطلاق السهم الذي يسدده فارسه ، فيبلغ
الهدف قبل أن يبلغه السهم . وإذا مضى الفارس يبحث عن ملاذ ، واج
الجواد ملاذا ، سابقت سيقانه بصره ، وطوى المسافة التي تفصله عن
هدفه . كما تطوى الريح السحاب . وإذا لمح الرواح تهدد صاحبه ، هب
إلى الذود عنه وشب بجماع جسمه ليحميه ، في حين ينثر صهيله بالويل
ويلق الروح . وأما إذا هوجم الفارس من خلف فإنه ينزلق تحت بطن
حصانه أو يتعلق بعنقه ، وحصانه المسرع سرعة البرق كفيل بأن يحمله
بعيداً عن الخطر .

إن الرابطة التي تصل الحصان بفارسه ، رابطة لا تنفصم عراها ،
ولقد بلغ من قوتها أنك لا تجد - في الكتب العربية - اسم المقاتل إلا مقترنا
باسم جواده دائماً - وما أكثر هذا - من مثل : (في واقعة كذا ، كان
فلان يمتطي شقراء أو حمامة . . . كان فلان في العشرين من عمره ،
وفرسه في الخامسة . . . لولا براعة « ورد » لبات أسيرا ، أو لبكاه أهله
إلخ . .) وإلى جانب ذلك ، فقد التزم أبطالنا الشعراء أن يمدحوا في
أبيات لا حصر لها بطولات جيادهم ويألها من أبيات مختلجة بالعاطفة ،
يوحىها التقدير وعرفان الجميل ، أبيات ناطقة بالألفة والحنان وكأنى بها
وهي تنشد في المعركة تذكى في نفس الجواد الكريم حمية وفخرا :

فهذا هو الأخنس بن شهاب يقول لفرسه « زيم » (١) :

(١) أنساب الخيل ص ٨٥ تحقيق .

هذا أوان الشد فاشتدى زيم مثل على مثلك يدعى العظم

ويقول زيد بن سنان في فرسه « الوجزة » (١) :

رميتهم بوجزة إذا تواصلوا ليرموا نحرها كثبا ونحري
إذا نفلتهم كرت عليهم كأن فلوها فيهم وبكري

والمك بن عوف النصرى في فرسه « محاج » يوم حنين (٢)

أقدم « محاج » إنه يوم نكر مثل على مثلك يحى ويكر

ويقول ابن النضير السعدى في فرسه « اليسير » (٣) :

وأنى واليسير إذا التقينا لكالمتكافئين على الأمور

كما يقول المنذر بن الأعمى الخولاقى في فرسه « العارم » :

أقيه في الحرب بنفسى كما يقينى الموت تحت الظلال

ولعمير بن جبل البجلى في فرسه « العرن » :

أقنيتيه دون أهلى ما يسر به له حليب وتارات له نبن

(١) أنساب الخيل ص ٦٩ - ٧٠ (تحقيق) .

(٢) أنساب الخيل ص ٧٠ (تحقيق) .

(٣) أنساب الخيل ص ١٠٠ - ١٠١ (تحقيق) .

ويقول حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فى « الورد » :

أتى دونه المنايا بنفسى وهو دونى يفسى صدور العوالى
فإذا ما هلكت كان ترائى وسجالا محمودة من سجالى
ولعنّرة فى فرسه « الأدهم » :

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان برّ فى لبان الأدهم
وإن فى هذه الاستشهادات ما يغيننا عن ذكر الفرس « جذيمة »

التي ظلت تعدو من الصباح إلى مغرب الشمس حتى سقطت ميتة فى
معسكر فارسها بعد أن أنقذته ، وعن ذكر « جلاب » التي نحرها حاتم
لإطعام ضيوفه و « الأطلال » التي وثبت وثبة ارتفاعها أربعون ذراعا ،
و « عوج » التي قطعت قيودها وانطلقت تعدو أربعة أيام متصنة حتى
وجدت صاحبها ، و « داحس بن ذى العقال » و « الغبراء » التي حالت
المكيدة بينها وبين الفوز فى السباق واشتعلت بذلك نار الحرب بين قبيلتي
عبس وذبيان واستمرت أربعين سنة ، وتلك هي حرب «داحس والغبراء» .

ومثل هذه الأمثلة يغمر قصص الفروسية فى الغرب . فهى تروى
كيف أيقظ جواد « أوجييه » صاحبه عند اقتراب العدو ، وكيف تبادلوا
فى مناسبات عديدة شجون الحديث ودلائل العطف . وفى قصة « رينودى
مونتوبان » يصيح « رينو » وهو يتحدث عن جواده « بايار » قائلا :
« ألا بوركت الساعة التي ولدت فيها » ، ثم يخاطبه فى سداجة يفهمها كل
من يحب الخيل قائلا :

« إيه بايار! ليتك استطعت النطق حتى تخفف من شدة ألمي (١) » .

وتروى قصص أخرى ، كيف عاد « دوستون » بعد غياب دام سبع سنوات ، فلم تعرفه خطيبته ، بينما عرفه حصانه ، وكيف أقيمت مباريات كثيرة ونشبت معارك دامية من أجل الفوز بجواد ذائع الصيت . . .

ولسوف تقنع هنا - دون أن نمضى إلى أبعد من هذا الحد في جمع اللمحات التي اشترك بها الشرق والغرب معا في التعبير عن تلك العاطفة المتبادلة التي لا تشوبها شائبة بين الفرس وصاحبه - بأن نورد ، بمثابة تلخيص لما سبق ، صورة (٢) الجواد كما رسمها الشاعر امرؤ القيس في القرن السادس بقوله :

وقد اغتسدى والطير في وكناتها بمنجرد (٣) قيد الأوابد (٤) هيكل

(١) جوتييه ، ص ٧٢٧ - ٧٢٩ .

(٢) أطنبت القصائد القديمة في وصف الجياد . وقد أورد جوتييه عدداً كبيراً من تلك الصور نستطيع أن نستخلص منها الخواص التالية : « ينبغي أن يكون الرأس نحيفاً ، وأن تكون الأذنان صغيرتين . وأن يكون المنخران عريضين متسمين ، والمينان صافيتين متأججتين ، حمراوين متوقدتين ، بل وعميقتين حادثين . ويستحسن العنق المشقوق والصدر العظيم ، والسلسلة الفقرية المستقيمة المرتفعة ، والفخذ القصيرة والساق المنبسطة ، والمؤخرة الضخمة ، والخوافر السوية ذات الخطوط الواضحة والانحناء الرشيق » جوتييه تعليقات ص ٧٢٧ وما يليها .

(٣) قليل الشعر .

(٤) سريع لا يقلت منه وحش .

مكر مفر مقبل مدبر معا
 كميت يزل اللبد عن حال ممتنه (١)
 على الذبل جياش كأن اهتزامه
 مسح إذا ما السابجات على الونى
 يزل الغلام الخلف عن صهواته
 دربر كخذروف الوليد أمره
 له أبطلاظي وساقا نعامة
 ضليع إذا استدبرته سد فرجه

(١) عن ظهره .

(٢) الصخرة الصلبة .

(٣) المطر .

(٤) بالرغم من ضوره فإن تكسر صهيله في صدره كأنه غليان قدر .

(٥) يتابع الجرى في الطرق التي تعبى غيره من الجياد السابجات .

(٦) لا يثبت على ظهره غلام أو فارس ماهر ، لشدة عدوه وفرط مرحه .

(٧) يصفه أيضاً بالسرعة ومتابعة العدو كالخذروف وهو حصاة مثقوبة يجعل

الصبيان فيها خيطاً فيديرها .

(٨) الأيطل : الخاصرة ، والرحان : الذئب ، والارخاء ضرب من عدوه ، والتقريب :

وضع الرجلين موضع اليدين ، والتفتل : ولد الثعلب .

(٩) أى هو عظيم الأضلاع وذيله ساينغ تام يسد الفراغ الذى بين رجله لا يميل

ولا يبلغ الأرض وهذه كلها من دلائل عتقه وكرمه .

كأن على المتئين منه إذا انتحى مداك عروس أو صلاية حنظل^(١)
كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل^(٢)

ولنختم هذا الفصل بما جاء في « كتاب الأقوال » : « إن الجياد
أبهى ما وهب الله لعباده من نعم . . . فلقد جعل الله الحصان أشرف
المخلوقات بعد بني آدم ، وخير الدواب ، وأعجب الحيوان طبيعة وحسنا ،
وأبدع الزينات رواء .

ولقد أولع المرء بحب النساء والبنين وأكداس الذهب والفضة والخيل
النفيسة والقطعان والمزارع . وفي رأينا أن الرجل الذي اجتمعت لديه هذه
الأشياء الست ، إذا امتطى صهوة جواده نسى ما عداه ولم يلتق ما يليه
عن جياده . . . »^(٣)

(١) يشبه مقدمة ظهره الأملس واكتنازه باللحم ، بالمداك أى الحجر الذى تحسق
العروس به الطيب ، أو بالحجر الذى يكسر عليه الحنظل .
(٢) كأن دماء أوائل الصيد على نحره عصارة حناء تخضب بها شيب ممرح . (تحقيق)
(٣) عن الدكتور بيرون في (الناصرى) .